ميشال شيحا: آخر "أنبياء" فلسطين!

دكتور نبيل خليفه*

P 184

"قد نرى مسوغاً لاعتماد لغة الأنبياء كلّما كان الأمر يتعلّق بإسرائيل".

ميشال شيحا (آب ١٩٥١)

مقدّمة

سيكون من المتعذر على الكثيرين، في الماضي والحاضر والمستقبل، فهم الأبعاد الحقيقية للنزاع العربي – الاسرائيلي من دون العودة إلى فكر ميشال شيحا. ومع أني من المدمنين على قراءة ميشال شيحا باعتباره أحد روّاد الفكر اللبنانوي البارزين، فقد حظيت بشرف التكليف من مؤسّسة ميشال شيحا لوضع ترجمة عربيّة جديدة لكتابه "فلسطين". وقد تسنّى لي، عبر مئة مقالة كتبها شيحا عن فلسطين خلال تسع سنوات (١٩٤٥-١٩٥٤)، أن أتابع هذا الرجل في فكره السياسي إزاء المسألة الفلسطينية، منظوراً إليها من ثلاثة محاور:

المحور الأول: معنى قيام دولة اسرائيل في فلسطين.

المحور الثاني: المخاطر التي تشكّلها هذه "المغامرة" على فلسطين والدول العربية المجاورة والسلام العالمي وحتى على اسرائيل ذاتها!

المحور الثالث: ما العمل، عربياً ودولياً، لتجنّب مثل هذه المخاطر.. وضمن أية حدود، وشروط؟!

---

* باحث في الفكر الاستراتيجي.

* تصادف، هذا العام، الذكرى الخمسون لوفاة ميشال شيحا (١٨٩١-١٩٥٤)، كما يصادف صدور كتابه "فلسطين" بترجمته الجديدة إلى العربية (ترجمه د. نبيل خليفة وصدر بالتعاون بين دار النهار للنشر، ومؤسّسة ميشال شيحا). هذه الدراسة المستوحاة من كتابه "فلسطين" هي تحيّة لروح ميشال شيحا، أبرز المعماريّين البناة للفكر اللبنانوي، وآخر "أنبياء" فلسطين!

وفي العودة إلى نصوص ميشال شيحا المعبّرة عن وعي خارق ونضج فكريّ، يتأكد لنا أمران جوهريان:

الأول: كم أن هذا الرجل يجسّد السمة التي وضعها فريدريتش راتزل للسياسي من أنه رجل التوقّع والتبصر (Prévoyance) لأنه بالتعريف الصحيح، إنسان يعمل لبناء المستقبل.

والثاني: كم أن العرب، مسؤولين ومحكومين، كانوا ولا يزالون "اهل بديهة وارتجال" كما يقول الجاحظ. فلا فهموا تجربة الماضي وليسوا، على الغالب، في وضع مناسب لفهم تجربة الحاضر والمستقبل!

.. لهذا لا بدّ من العودة إلى ميشال شيحا لتذكيرهم بثقافة التاريخ والجغرافيا والتراث والسوسيولوجيا والدولة والعلاقات الدولية ونظام القيم والطبيعة الانسانية وطبيعة الأشياء والعلاقة الجدلية بين إرادة الإنسان ومعطيات المحيط، وقوانين الحياة كما تتجلّى لديه في مقاربته لموضوع النزاع العربي – الاسرائيلي، وهي مقاربة تكاد تكون نبويّة من حيث مدى التبصّر فيها، أليس هو القائل: "قد نرى مسوّغاً لاعتماد نبرة الأنبياء كلما كان الأمر يتعلق بإسرائيل. غير أننا نتحاشى الانزلاق في الإشراقية (اليهودية) بعد هذا التبصّر الطويل"[1].

Palestine, p 184

أولاً: إسرائيل.. وفلسطين التاريخيّة!

في كلامه على إسرائيل وفلسطين التاريخ، يبدأ ميشال شيحا من حيث ينبغي أن يبدأ، بالكلام على اسرائيل وفلسطين الجغرافيا. فهوكمفكر سياسي يدرك أن الجغرافيا السياسية هي التفسير الجغرافي للتاريخ. وفي مقالته "فلسطين والجغرافيا"[2]، يسترجع ما قاله أحد كبار النقاد العسكريين ومدرّس تاريخ الحرب في جامعة أوكسفورد سيريل فولز "لتكن الخرائط، وخرائط الكرة الأرضية أدوات العمل لدى الرجل السياسي". ويعلّق شيحا بالقول: "لن يكون ممكناً الانشغال بزاوية معيّنة من الأرض ما لم تعرض بالضبط ماهية طبيعتها الفيزيائية، وكيف تبدو بالنسبة لعلاقتها بالعالم. ولا بدّ من إضافة الجغرافيا بمعناها الحصري إلى الجغرافيا البشرية"[3].

p 60

---

(١) **فلسطين**، الترجمة الجديدة، ص ١٦٧ (وهي الترجمة المعتمدة لدينا كمرجع طوال هذه الدراسة، حيث نضيف إلى رقم الصفحة السنة التي كتب فيها المقال. (١٩٥١).

(٢) المصدر السابق، ص ٥٨ (١٩٤٧).

(٣) المصدر السابق.

بهذه النظرة يطرح شيحا مسألة جوهريّة في نشوء وحياة الدول ألا وهي: الدولة والحيّز (Espace) أي العلاقة بين الدولة كمؤسّسة سياسيّة وبين قاعدتها الجغرافية. فلقد راعه أن توصي لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين الجغرافيا إلى اثنتين أو ثلاث (عربية ويهودية ودولية). واعتبر "أن هذا البلد الصغير لا يمكن أن يُجزّأ إلا بضرب من الجنون"(٤)، وإن حصل ذلك ففيه "إساءة للمنطق وللنظام الخلقي".

ولطالما تساءل شيحا "لماذا هذه "الفلسطين" الصغيرة الضيّقة الهزيلة القاحلة التاعسة، والتي على وشك أن تكتظّ بالسكّان، تكون إلى هذه الدرجة، مادة للمطامع والشهوات في حين أن حيّزات في العالم الجديد وخارجه يطيب العيش فيها لا تزال خاوية؟"(٥).

وعنده، أنه سيأتي يوم تدرك فيه أميركا وبريطانيا "أن فلسطين هي حقاً جدّ صغيرة لاستقبال الدياسبورا اليهوديّة". فإن تمّ ذلك فسيكون "عمل عنف في مواجهة الطبيعة"(٦). لذلك فهو ينتظر بفارغ الصبر "أن يقوم الأميركيون بعملية مسح لأرض فلسطين وأن يقيسوا مجالها الضيّق، مقارنةً بمجالهم الوسيع، وأن يروا بأمّ العين أنه لأمر يفوق التصوّر ذاك الذي يهدف الى حشر الفائض من يهود أوربا وأميركا في هذه البقعة! إلاّ إذا عُلِّب الناس فيها كما تُعلَّب أسماك الأرض الجديدة"(٧).

ألم يكن شيحا ينبّه "علمياً ونبوياً" منذ ما يزيد على نصف قرن إلى أن جوهر الصراع الداهم والمقبل في فلسطين وعليها، كما تؤكده وقائع الزمن الحاضر والآتي إنّما هو في العمق **صراع الديمغرافيا العربية واليهوديّة لاحتياز الجغرافيا الفلسطينيّة**؟ من هنا عنوان إحدى مقالاته الموجهة إلى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حول مستقبل فلسطين وهو بأحرف كبيرة: "فلسطين ليست أرضاً خاوية"(٨). وعنوان معبّر لمقالة أخرى أشرنا إليها وهو "فلسطين

---

(٤) **فلسطين**، ص ٥٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٢١ (١٩٤٥).

(٦) المصدر السابق، ص ٢٤ (١٩٤٧).

(٧) المصدر السابق، ص ٢٧ (١٩٤٥)

(٨) المصدر السابق، ص ٦٣ (١٩٤٧).

والجغرافيا"[٩]. وهكذا يشدّد شيحا إذن، على سبعة مبرّرات لرفض قيام دولتين في فلسطين التاريخية: واحدة عربية وواحدة يهودية:

الأول: ضيق المكان أو الحيّز الجغرافي الذي لا يتّسع لدولتين وبالكاد يتّسع لدولة واحدة.

الثاني: صعوبة العيش "في أرض فقيرة ضيقة سقيمة ومحرومة"[١٠].

الثالث: كثافة السكان العالية وتشابك إتني – ديني بين أبنائها، "فكيف تُشطر أرض بهذا الصغر، وهي مكتظة بالسكان، أرض حيّة كل شيء فيها بهذا المقدار من التشابك والتعقيد"[١١]!

الرابع: إنّ "زرع" إسرائيل في فلسطين على يد القوى الكبرى التي لديها سعة الأرض والثروات، لا يناهض مصالح سكان فلسطين العرب فقط، بل هو قبل ذلك "زرع شعب متعصّب (يهودي) وفي ذلك ما يناهض المصالح الحقيقية لهذا الشعب بالذات"[١٢].

الخامس: إن "محاولة إقامة دولة يهوديّة في فلسطين ستفضي إلى حرب دينيّة. وسيُضاف إلى العديد من المآسي، مآس أخرى لإسرائيل وللذين يقاتلونها"[١٣].

السادس: مبرّر ديني رمزي وهو "ان فلسطين هي أرض مثلّثة التقديس لدى المسيحية والاسلام وإسرائيل، فإنها لهذا السبب وأسباب أخرى لا تتجزأ"[١٤].

السابع: نظرة شيحا إلى المخاطر البعيدة والخطيرة لإنشاء إسرائيل وهو القائل: "إن قرار تقسيم فلسطين بإنشاء الدولة اليهودية هو حدث ربّما يبدو عادياً في الظاهر ولكنّه سيسهم في زعزعة أسس العالم"[١٥].

وهكذا يرى شيحا كخلاصة شاملة ان فلسطين هي "واحدة لا تتجزأ" وهو ما ستراه وتدركه الأمم بشكل نهائي ولو متأخرة. وكل تقسيم لها سيكون قراراً "فيه الكثير من العنف والتعسّف" وسيتمّ على حساب مصالح سكانها العرب واليهود في آن.

---

(٩) **فلسطين**، ص ٥٨ (١٩٤٧).

(١٠) المصدر نفسه، ص ٦٢ (١٩٤٧).

(١١) المصدر نفسه، ص ٤٣ (١٩٤٧).

(١٢) المصدر نفسه، ص ٦٢ (١٩٤٧).

(١٣) المصدر نفسه، ص ٧٨ (١٩٤٨)

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٨ (١٩٤٦)

(١٥) المصدر نفسه، ص ٧٠ (١٩٤٧).

ثانياً: إسرائيل: المشروع – الحلم!

كان شيحا من المفكّرين القلائل الذين استوعبوا، منذ البداية، معنى قيام إسرائيل كمشروع حلمت به الصهيونية. وحاول في كتاباته، من موقع فكري وليس شوفيني، إلقاء الضوء على مكوّنات وخلفيّات هذا المشروع بأبعاده الدينية والإيديولوجيّة والسياسيّة والاقتصادية، وبمخاطره على اليهود أنفسهم، على الفلسطينيين، على الدول المجاورة لإسرائيل، على العرب، وعلى العالم.

١ – مملكة بل امبراطورية:

يستخدم ميشال شيحا تعبير « L'Entreprise » أي المشروع ويردّده كلّما تناول ما يخطّطه اليهود في فلسطين. ويتجنب استعمال لفظتَي « Plan » و « Projet » بمعنى رسم أو مسودة خطّة، ولم يكن لديه ميل إلى استعمال المفردات العسكريّة "الاستراتيجية". إن عمق إلمامه بالفرنسية وظلال المعاني في الألفاظ جعله يستخدم دائماً لفظة « Entreprise » لسبب لغوي جوهري وهو ارتباطها بمعنى المغامرة ومن هنا القول « Esprit d'entreprise » أي عقليّة مغامرة. فالمشروع الصهيوني هو مشروع مغامرة مبنيّة على الحلم. ولكن أي حلم؟ يجيب شيحا: "تعيش اسرائيل الحلم المدهش بإنشاء مملكة تصل إلى حدود الفرات وتجمع ما بين "أور" في أرض الكلدان وأورشليم. إن مشاريعها هي مشاريع امبراطورية. فهي في هذا تواجه مخاطر جمّة، وقد تدفع غالياً ثمن مجازفتها تلك. ومع ذلك، فهذا هو حلمها[١٦]...

٢ – سوبر–دولة عنصريّة!

مع اعترافه بأن مشروع قيام إسرائيل هو "أغرب مشروع سياسي في العالم"، فهو يحذّر من أن ما يخطط له اليهود الصهاينة ليس "مجرد وهم". وشيحا لا يقول بأن كل حلمهم سوف يتحقق "وإنما نقول بأنهم سيحاولون تحقيقه"[١٧]، "فإذا ما نجح المشروع فسيأخذ فوراً شكل سوبر–دولة انطلاقاً من فلسطين الضيّقة"[١٨]. وستضحي اسرائيل "دولة عالمية وليست تلك الحفنة

---

(١٦) **فلسطين**، ص ٥٧ (١٩٤٧).

(١٧) المصدر نفسه، ص ٨٩ (١٩٤٨).

(١٨) المصدر نفسه.

من المبعدين المضطّهدين الباحثين عن ملجأ تحت السماء كما شاؤوا أن يصوّروها لنا"[١٩]. ومع ذلك يؤكد شيحا، رغم السوبر-دولة والعالميّة "أن المغامرة اليهودية بكليّتها إنما هي عرقيّة مبنيّة على دين"[٢٠] حتى ولو أعطيت غطاء عالمياً لأسباب معروفة. ذلك أن اسرائيل "هي قوة عالميّة متفرعة على كوكبنا بكامله ولها من المطامح المعلنة أو المضمرة ما يتخطّى كل شيء"[٢١]، يُضاف إليه أن شعبها (الشعب اليهودي) "يمتلك قوة تكاد تكون غير محدودة، إذ هو مدعوم من أهم حكومات الأرض"[٢٢]. ومع كل ذلك تبقى اسرائيل "الدولة الأكثر عرقيّة والأكثر طائفيّة في العالم"...!

لكن شيحا يعتبر "أن قرناً جديداً بدأ بمولد اسرائيل السياسي. وهذا الحدث سيتخطّى في أهمّيته التاريخيّة تكوين أوربا الغربية وتوقيع الحلف الأطلسي. فلقد أبصرت قوة عالمية النور ولم يكن يعوزها سوى الرأس والسيادة الوطنية". ويعترف شيحا: بقدرات اليهود الفكريّة والعلميّة والفنّية "ليس من ينكر على اليهود ذكاءهم وحدّة ذهنهم. إن كفاءتهم في مجال العلوم معروفة والسلاح الذري بالذات لم يكن غريباً عنهم. وأما فن الإثراء فقد حذقوه حتى درجاته العليا"[٢٣].. ومع ذلك فإن مشروعهم هو "المشروع العرقي الأكثر تجرّؤاً، والأكثر لامعقوليّة، والأكثر هولاً في هذا العصر"!

٣ – دولة "مجسيّة" توسّعيّة (Tentaculaire)

لعلّ الصورة المعبّرة التي يرتاح إليها ميشال شيحا لوصف مشروع الدولة الصهيونية هي أنه مشروع مجسيّ « Une entreprise tentaculaire » بما يعني أنه مشروع توسّعي بالغريزة. فصفة المجسيّة في العربية تعطى للكائنات المائية ذات الزوائد والأذرع (كالأخطبوط وبعض الديدان) القدرة على إرسال أذرعها أمامها في جميع الاتجاهات إمّا للقبض على فريستها وإمّا لالتماس طريقها. فإما أن تتمكن فتنجح وإما أن تُصدّ فتتراجع وفي جميع الحالات فهي تعبّر عن غريزة التوسع لديها حيث أمكن ذلك. وهي لا تفعل ذلك لمرة واحدة، بل تعيده باستمرار وباصرار[٢٤]!

---

(١٩) **فلسطين**، ص ١٠٣ (١٩٤٨)

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٤ (١٩٤٨)

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٠٧ (١٩٤٨)

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ص ١٤٤-١٤٥ (١٩٤٩)

(٢٤) المصدر نفسه، ص ص ١٧٧ (١٩٥٢)، ٢١٦ (١٩٥٣)

وعند شيحا "أن الدولة اليهودية أنشئت كي تتوسّع باستمرار"(٢٥)، والمشروع المجسيّ الاسرائيلي يتّسع في جميع الاتجاهات.. ولدى إسرائيل في مخطّطاتها القريبة والبعيدة تحقيق توسعات إقليمية"(٢٦). وهي مخططات تستهدف الهيمنة على الشرقين الأدنى والأوسط: "لقد جعل اليهود الشرقين الأدنى والأوسط منطلقاً لحلم الهيمنة المعروف"(٢٧). فإسرائيل كما رسمتها الأمم المتحدة في قرار التقسيم هي مجرد "رأس جسر، ونقطة انطلاق وبداية"(٢٨)... ودعاء اليهود معروف: "العام المقبل في أورشليم"!.. وما بعدها!

هذه المجسيّة التوسعيّة تستند في الذهنية الصهيونية إلى مبررين يشدد عليهما ميشال شيحا:

الأول: مبرّر لاهوتي إيديولوجي توراتي حول إسرائيل الكبرى وأرض الميعاد أو أرض اسرائيل كما تحدثت عنها التوراة. "فإذا كانت مملكة اسرائيل، في عهد سليمان، تبدأ من على الشاطئ، من الكرمل، فإنها كانت تبسط نفوذها حتى الفرات وصولاً إلى الرقّة. وابراهيم كان مجيئه من "اور" في أرض كلدان الواقعة جنوبي بغداد. كل هذا يشكّل سلسلة من أحلام الفتح بالنسبة لشعب إسرائيل"(٢٩).

الثاني: مبرّر ديمغرافي عنوانه الكبير: هجرة اليهود الى فلسطين من كل أصقاع الأرض. ولهذا يجزم شيحا قائلاً: "ستبقى قضية زيادة السكان في إسرائيل قائمة ما بقيت دولة إسرائيل قائمة. والحال، ان الهجرة الدائمة هي مبرّر وجودها"(٣٠). وينبّه شيحا باكراً إلى كلام أطلقه بن غوريون، وقد تحقق الآن بعد نصف قرن من "أن القدس ستكون عاصمة اسرائيل كما واشنطن عاصمة الولايات المتحدة، وان الهجرة سوف ترفع عدد سكان اسرائيل اليهود إلى خمسة أو ستة ملايين. ويضيف محذراً: إن هذا سيزيد القلق والاضطراب في الشرق الأدنى"(٣١).

---

(٢٥) **فلسطين**، ص ١٨٣ (١٩٥٢).

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢١٦ (١٩٥٣)

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٣ (١٩٤٨)

(٢٨) المصدر نفسه.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٠٠ (١٩٤٨)

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٧٩ (١٩٥٢)

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٨٧ (١٩٥٢)

ثالثاً: إسرائيل.. وجيرانها: الحدود!

عندما يجمع ميشال شيحا مقوّمات الحلم الصهيوني: مملكة اسرائيل، السوبر دولة والمجسيّة التوسعية والهجرة، فإنه يتوصّل إلى استنتاج جوهري مؤداه: "إن نمو اسرائيل لا يتم، ولا يمكن أن يتمّ، إلا على حساب جيرانها"(٣٢). وبهذا المعنى تقوم جدلية واضحة لديه بين مفهومي الوجود والحدود: فالوجود رهن بالحدود، والحدود شرط للوجود. فالصراع هو صراع وجود وحدود في آن أي أن ضمان الوجود يكمن بتوسيع الحدود أي بالضغط على حدود الدول المجاورة!

١ - يقول شيحا: سيزداد الضغط عبر جميع حدود الدولة اليهودية بما فيها حدودنا بالتأكيد (يقصد الحدود اللبنانية) وهو ضغط لن يكون بمقدور أحد أن يتبيّن مدى تطوّره ونهائيّته.. فعلى كل لبناني كما على كل سوري أن يتذكّر أننا الجيران المباشرون لهذا المطمع ولهذه القوة وان المشروع اليهودي لن يعرف التوسع المأمول إلا بمروره على جسدنا"(٣٣). وعنده "أن أول هدف للمؤامرة هو مضاعفة عدد اليهود في الأرض المقدسة بحيث يضغطون على الحدود ثم يصدّعونها لتحقيق حلمهم بالهيمنة"(٣٤). إزاء ذلك يحذر شيحا اللبنانيين بالقول: "نحن، اللبنانيين، مدعوون إلى رؤية هذه القدرة تنمو على حدودنا وإلى تحمّل العبء الساحق لحضورها ولمحاولاتها"(٣٥). كما يؤكد "أن الضغوط التي لا تحتمل ستزداد على الدول العربية وهي ضغوط سوف تكتسب أشكالاً لا حصر لها مما يستدعي بشكل دائم التيقّظ والدفاع المشروع عن النفس"(٣٦).

٢ - يتحدث ميشال شيحا بأسلوب ساخر، وهو نادر لديه، عن الدول التي تبرّر توسّعها الاقليمي بحجّة حماية أمنها المزعوم، شأن إسرائيل،مستعيناً بكلام لجيمس بيرنز في مذكراته: "عن الأشخاص الذين يشترون المزرعة أو البيت المجاور ليحموا مزرعتهم وبيتهم. والمشكلة أنه يوجد دائماً مترل ومزرعة في الجوار".. ويضيف شيحا: "نحن الآن وسنصبح أكثر فأكثر

---

(٣٢) **فلسطين**، ص ١٨٧ (١٩٥٣)

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٥٧ (١٩٤٧)

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٨٩ (١٩٤٨)

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٢٤ (١٩٤٨)

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٣٧ (١٩٤٩)

غداً مباشرة أو مداورة المترل والمزرعة المجاورة. فلنتيقّن من ذلك، وليعلم شركاؤنا السوريون وغيرهم، الذين يجهلون قسماً من التاريخ، كم أنهم معرّضون للمخاطر"[٣٧].

٣ – يتخطّى شيحا الوجه الأمني لمشروع التوسّع الاسرائيلي كاشفاً عن خلفيّته الاقتصادية التجارية من أنه مشروع استعمار للشرق الأدنى برعاية أميركا. وفي هذا حدس مسبق "بمشروع الشرق الأوسط الكبير" الذي سيكون حكماً تحت الهيمنة الاسرائيلية. إنّه في رأيه "مشروع جَسور لوضع يد اقتصادية ومالية وصناعية وتجارية وهو لن يتوقف الا بتحقيق توسّعات أرضيّة وسياسيّة وارتهان أكتافنا بحمل النير الأكثر ثقلاً، وأخيراً بالاستعباد.. إنه مشروع جهنّمي لاستعمار الشرق الأدنى برعاية أميركا"[٣٨]. وفي وضع كهذا لن تعرف بلداننا الراحة والازدهار والسلام إذ "كيف يمكن لدولة اسرائيل، وقد أضحت على حدودنا مرفأ ارتباط لجميع يهود العالم، أن تدع الدول العربية ولبنان في مقدّمتها، تعيش وتزدهر بسلام؟[٣٩]". "لقد جعل اليهود من الشرقين الأدنى والأوسط منطلقاً لحلم الهيمنة المعروف والذي يدّعون أنهم بنوه على مزاياهم الطبيعية وعلى ثرواتهم وعلى قدرتهم وأخيراً على الكتاب المقدّس"[٤٠].

٤ – إن فرض الأمر الواقع على الشرق الأدنى أفقده توازنه "وبفقدانه توازنه، أصبح الآن خطيئة في عنق الأمم"[٤١]، عنق الدول الكبرى وهيئة الأمم نفسها وهي جميعاً لا تزال إلى الآن عاجزة عن إيجاد حلّ يعيد الشرق الأدنى إلى هدوئه وتوازنه.!!

رابعاً: إسرائيل في محيطها: القلق.. والاحتراز.. والمقاومة.

كيف يشرح ميشال شيحا، ويبرّر علمياً في آن، عوامل القلق التي تنتاب شعوب المنطقة بفعل قيام إسرائيل، وبالتالي كيفية الرد على الضغوط، من كل نوع، التي يفرضها المشروع الصهيوني على دول المنطقة؟

---

(٣٧) **فلسطين**، ص ١٠٠ (١٩٤٨)

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١١٧ (١٩٤٨)

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١١٧ (١٩٤٨)

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٢٣ (١٩٤٨)

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٣٧ (١٩٤٩)

١ – لنقرأ بتمعّن ما يقوله شيحا في هذا الصدد انطلاقاً من وعي كامل وعميق لحقائق التاريخ والجغرافيا والعلاقات الدوليّة والصراعات الجيو–اتنو–دينية: "إن الضغوط التي لا تحتمل ستزداد على الدول العربية، وهي ضغوط سوف تكتسي أشكالاً لا حصر لها، مما يستدعي، بشكل دائم، التيقّظ والدفاع المشروع عن النفس"(٤٢).

في هذه الأسطر الثلاثة المعبّرة، خمسة أمور يجدر التوقّف عندها:

أ – إن الدول العربية ستواجه في المستقبل ضغوطاً يصعب احتمالها. إنها ضغوط قاسية وصعبة ومتزايدة على الجميع.

ب– أما طبيعة هذه الضغوط فهي متنوّعة: ضغوط عسكرية وسياسية واقتصادية ومائية ونفسية وثقافية ومالية وتجارية واعلاميّة...

ج– إن هذه الضغوط ستبقى قائمة ما دامت دولة اسرائيل قائمة، أي أنها ضغوط دائمة ومستمرة. وهذا "يستدعي بشكل دائم" أي أن يكون العرب في استنفار دائم.!

د– في مواجهة هذه الضغوط، بحسب شيحا، على العرب ان يتمرّسوا بأمرين: التيقّظ، والدفاع المشروع عن النفس. فاليقظة ضرورية كي لا نفاجأ بالعدو وبخططه. والدفاع المشروع عن النفس له شرعيته في القانون الوضعي والقانون الدولي والشرائع الإلهية.

ه– وهذه الضغوط ستطاول كل الدول العربية التي "لن تذوق طعم الراحة. فلقد كتب عليها الأرق وحوادث الحدود التي ستتكرّر إلى حد الانفجار"(٤٣).

٢ – ومع أن مروحةالضغوط تشمل الدول العربية، فإن شيحا يميّز لبنان عن غيره كميدان مفضل للتجربة الصهيونية. "فنحن هاهنا الجيران المباشرون لهذه "الاسرائيل" العجيبة. لقد نمت على حدودنا نمو زهرة مسخ، وعلى قاب قوسين منا سيزدهر حقل اختبارها في الظل أو تحت نور الشمس.. فلدينا كل الأسباب التي تجعلنا نقلق من المستقبل وأن نرى ما لا يراه الآخرون أبداً"(٤٤).

---

(٤٢) **فلسطين**، ص ١٣٧ (١٩٤٩)

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢١٠ (١٩٥٣)

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٤٦ (١٩٤٩)

.. أجل، لقد كان شيحا يرى بالفعل ما لا يراه الآخرون!! فهو منذ البداية يحاول "إظهار إسرائيل على حقيقتها" ويشتكي منذ سنوات "الخطر الكبير الذي يتسع على حدودنا.. فإذا نحن لم نحترز، وإذا لم يكن رد فعلنا كما ينبغي أن يكون، علينا أن ننتظر من جانب تل ابيب مفاجآت غير سارة"(٤٥).

٣ – ولعلّ أولى هذه المفاجآت وضع اليد على نهر الليطاني "هذا المجرى المائي، هذا النهر الصغير يضاعف من هواجسنا بسبب مشاريع اسرائيل ومطامعها.. فإن ضاع الليطاني من يدنا أو تقسّم، أفنلقى في نهر الأردن بفضل أريحيّة إسرائيل تعويضات عنه ومكافآت له؟".

ويضيف شيحا منبّهاً: "إننا بحاجة إلى الريّ والطاقة بمقدار حاجة إسرائيل.. ولذا نخشى من مشروعات الدول الكبرى لتقاسم الكهرباء والري (مشروع البنك الدولي بين اسرائيل ولبنان). "فنحن في لبنان طالما كنا **ميّالين** إلى الاستخفاف بهذه الأمور الخطيرة. وغالباً ما تخلّينا أو كدنا نتخلّى عن حقوقنا المقدّسة مقابل ما هو أقل **من صحن عدس...**". ويذهب شيحا إلى حدّ القول إنه مهما كانت الفوائد كبيرة لمشاريع الجوار الصالح بين الدول "ومهما كانت القضايا الاقتصادية حيوية، فلا بدّ من إخضاعها للنطاق السامي للروح ولصيانة الأرض والحرية"(٤٦).

بهذه الروحيّة الوطنيّة السامية جعل شيحا كل المنافع الاقتصادية أمراً ثانوياً بالنسبة إلى الحفاظ على أغلى قيمتين مقدّستين لدى اللبنانيين: الأرض والحرية! ومهما حاولت الولايات المتحدة أن تجعل القضية بيننا وبين اسرائيل اقتصادية فهي على خطأ، "إن قضية اسرائيل هي قضية سياسية قبل أن تكون اقتصادية، إنّها عشر مرات سياسيّة أكثر منها اقتصادية"(٤٧).

٤ – إزاء كل هذه المخاطر ماذا على العرب أن يفعلوا؟

جواب شيحا واضح وصريح: "أن يستفيقوا من شبه الغفوة التي يستسلمون لها، وأن يتمالكوا أنفسهم أكثر فأكثر، وأن يناضلوا مستخدمين كل قوّتهم وجميع الوسائل المشروعة". والسبب في ذلك "أن ما يحدث هو أشدّ المغامرات هولاً في تاريخهم. فعليهم أن

---

(٤٥) **فلسطين**، ص ١٥٦ (١٩٥٠)

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٦٥ (١٩٥١)

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٧٢ (١٩٥١).

يدركوا ذلك وأن يقتنعوا به فخصمهم يمتلك قوة تكاد تكون غير محدودة، وهو مدعوم من أهم حكومات الأرض"[٤٨].

ما هي هذه الوسائل المشروعة؟ إنّها قبل كل شيء: المقاومة. "بل عليهم أن يمضوا إلى آخر حدود المقاومة"[٤٩]. فمنذ العام ١٩٤٧ أكّد شيحا أنه ليس أمام الفلسطينيين والعرب سوى المقاومة.

ففي مقال شهير له بعنوان "الأسباب الجلّى لنشوء مقاومة" يبرّر شيحا أخلاقياً وحضارياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً ضرورة قيام مقاومة عربية ضد اسرائيل لأن "نجاح مخطط اسرائيل سيكون بداية تهجير جماعي أو عبودية حقيقية تصيب الدول العربية.. وسيكون من المفجع أن نحلّ محل اليهود (كلاجئين) في السير العكسي على طريق العالم"[٥٠] (بفعل الدياسبورا)، وبالاستناد إليه، "ليست المقاومة العربية ضروريّة وحسب، إنها لأمر حيويّ فهي حقاً وشرعاً، على المدى الطويل، **مسألة حياة أو موت**"[٥١]. ويذهب شيحا إلى ما هو أبعد من مجرّد تصوّر مقاومة لدولة اسرائيل وحدها. إنّها مقاومة ذات جذور انسانية تدافع عن وجدان الدول الكبرى التي فقدت هذا الوجدان كما تدافع عن قضيتينساميتين: العدالة والسلام. يقول: "إذ ندافع هنا عن أنفسنا فإننا نشعر أننا ندافع عن القوى الكبرى ذاتها"، وندافع قبل كل شيء عن قضية لا تشيخ هي العدالة وحتى عن السلام العالمي المهدّد"[٥٢]. ويصف شيحا هذه المقاومة: بأنها "ثروة العرب التي لا حدود لها والتي ستبدو أكثر إلحاحاً وستشتد مع الأيام"[٥٣].

.. وللذكرى.. هذا كلام قاله شيحا عام ١٩٤٨! ولكن ما العمل ومعظم الدول العربية "مصابة بالصمَم" ومحكومة "بأسوأ الساسة"! على حدّ تعبيره!

---

(٤٨) **فلسطين**، ص ١٠٧ (١٩٤٨)

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٦٠ (١٩٤٧)

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٩٣ (١٩٤٨)

(٥١) المصدر نفسه، ص ٩٤ (١٩٤٨)

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩ (١٩٤٨)

خامساً: القدس في خطر

١ – في مقال له بعنوان: "القدس في خطر" يتوجه شيحا إلى المسيحية والاسلام شارحاً البعد الايديولوجي لموقع القدس المركزي في العقيدة الصهيونية وبالتالي إلى سعي اليهود الدائم لجعلها عاصمة للدولة اليهودية:

"لتعلم المسيحية بأسرها.. ليعلم الإسلام بأسره أن الدولة اليهودية ستظل تهدد القدس بشكل دائم.. فلا صهيونية بدون صهيون، ولا أي دولة اسرائيلية يمكنها ان تستغني عن القدس. إن تاريخ اسرائيل هو تاريخ الشعب اليهودي، فإذا ما اسقطنا منه القدس، يكاد أن لا يبقى منه شيء. وعليه، فالقدس ستبقى عرضة لتهديد دائم من اليهود.. والمطمح اليهودي سيكون في الاستيلاء على القدس وجعلها على مراحل حاضرة (عاصمة) لليهود"(٥٤).

٢ – هذه الايديولوجية تبرر التحية **الفصحيّة** التي يتبادلها جميع يهود الأرض، سراً وجهاراً، "العام المقبل نكون في القدس". إن "هذا الحلم الكوني يخفي توقاً إلى الفتح يصعب تحديده" وهو يعني، "أن القدس مهددة من اسرائيل على المدين القريب والبعيد"(٥٥).

٣ – تمثّل القدس همّاً أساسياً لميشال شيحا في حياته وكتابه. وهو إذ يتحدّث عن "مصير القدس" يتساءل بألم "كيف يمكن تسليم القدس "المدينة المثلّثة التقديس" إلى اليهود؟" وعنده، أن الرهان في فلسطين، إنما هو "الرهان على القدس أحد أكثر الأماكن شموخاً في العالم والمدينة التي ولدت فيها الحضارة التي يحيا بها قسم كبير من الانسانية"(٥٦).

لذا يحذّر في مقالتين من "فتح القدس" ويدعو في مقال إلى "خلاص القدس" كجزء من حل وخلاص في فلسطين!

سادساً: رؤية للحل في فلسطين!

تنطلق رؤية ميشال شيحا للحل في فلسطين من قناعات فكرية منها:

١ – أن قرار تقسيم فلسطين وإنشاء دولة اسرائيل هو في جوهره قرار مناهض لمبدأ السلام، بل

---

(٥٤) **فلسطين**، ص ١٢٢-١٢٣ (١٩٤٨).

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١١٤-١١٥ (١٩٤٨)

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٥٤-١٥٥ (١٩٥٠)

هو إسهام ليس في زعزعة أسس السلام في فلسطين والشرق الأوسط بل في العالم كله[٥٧].

٢ – "إن السلام الممكن مع اسرائيل هو بعيد **ووهمي**"[٥٨] و"السلم مع اسرائيل **يتوقّف** على اسرائيل أي ان السلام يصبح ممكناً عندما تقتنع اسرائيل بضرورة التخلّي عن مجموعةٍ من الحماقات والأوهام"[٥٩].

٣ – إن كل حلّ بين العرب واسرائيل ينبغي أن ينطلق من معادلة واضحة "وضع حد لمطامع اسرائيل وقلق العرب في آن"[٦٠].

٤ – أمام إصرار اسرائيل على تنفيذ مشروعها الاستيطاني التوسّعي يعيش العرب حالة من التردد والضياع والانقسام وهم "لم يعودوا يعرفون إلى أي قديس أو شيطان ينذرون أنفسهم... وما يضيرهم في ذلك ثلاثة أمور مجتمعة أو منفصلة: تخلّف العقل، وغياب الرأي، وإفلاس العدالة"[٦١].

٥ – كانت لميشال شيحا رؤيتان للحل في فلسطين: الأولى لفلسطين من قبل التقسيم والثانية لفلسطين ما بعد التقسيم.

أ – الحل الفلسطيني ما قبل التقسيم: الحل اللبناني مع رياض الصلح.

"إن الصيغة التي طالبنا بها منذ زمن بعيد هي: حكومة واحدة (لفلسطين) ومجلس واحد وأحوال شخصية مصوغة ضمن إطار من الانفتاح.. في المحصّلة إنه الحل اللبناني حيث الجمعية المشتركة هي التي تمثل ارادة العيش المشترك في بلد مؤلف من اقليات مشتركة"[٦٢].

تلك هي "حظوظ العقل في فلسطين. وهذا هو الحل للمسألة اليهودية في فلسطين!

---

(٥٧) **فلسطين**، ص ٧٠ (١٩٤٧)

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٢١٥ (١٩٥٣)

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٢ (١٩٥٤).

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٢ (١٩٥٣)

(٦١) المصدر نفسه، ص ٢٣٩ (١٩٥٤)

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٣٠-٣١ (١٩٤٦)

وفي عزّ حمّى العمل للتقسيم، أشاد ميشال شيحا بتصريحات السيد **رياض الصلح**، رئيس وزراء لبنان، في باريس (تشرين الأول ١٩٤٨) حول مخاطر تقسيم فلسطين وضرورة اعتماد الحل البديل أي **النموذج اللبناني**. "فلقد كشفت الأقليات المترابطة، وهي التسمية التي عرّفنا لبنان بها منذ زمن بعيد، وعلى لسان السيد رياض الصلح بالذات، كشفت عمق وصلابة أخوّتها وتماسكها. إن ارادة الحياة معاً، والتسامح الأقصى والاحترام الكامل لحرية الضمير وهي امور طالما شرّفنا بلدنا الصغير بها، لجديرة، بل من الواجب أن تطرح على تفكير العالم، أقله لتكون حلاً إنسانياً للمسألة اليهودية في فلسطين.. حلاً قائماً على الحياة السياسية المشتركة وفيه انتصار للفكر بديل ان يكون انتصاراً للعنف والبؤس".

وبمثل هذا الطرح أثبت رياض الصلح "أهمية الفهم العميق لواقع عصرنا وللمستجدات في العالم، فكان الأكثر تعقلاً والأكثر اقناعاً"(٦٣).

هذه الرؤية لفلسطين الأرض والمجتمع والدولة والصيغة، هي وحدها القادرة على إلغاء الجدران الفاصلة بين الشعبين. فمنذ ثمان وخمسين سنة هاجم شيحا فكرة "**الجدار الفاصل**" وحذّر بوعي عقلاني / نبوي مما يحدث اليوم وهو إقامة الجدار الفاصل بين العرب واليهود، في الضفة الغربية، وقال إن الحلّ القائم على إرادة العيش المشترك "هو البديل لمنع **الجدار** الذي يفصل بينهما"(٦٤). إن الاختلافات السوسيولوجية تحلّ "في توسيع قوانين الأحوال الشخصية" وليس من المنطق إقامة **جدار** بين فرعين من العائلة الساميّة"(٦٥). غير أن لليهود نفسية أخرى، وحسابات أخرى تختبئ خلف جدران سميكة!. أما نحن، "فديمقراطيون والديمقراطية الاتينيّة حيّة في ذهننا"، على حدّ قولها!

ب – الحلّ ما بعد التقسيم: الحل العقلاني

يعتبر ميشال شيحا تقسيم فلسطين بأنه "مشروع مناهض للتقليد والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسي والفطرة السليمة وأخيراً طبيعة الأشياء"(٦٦). ولديه "أن كل عمل ضدّ هذه

---

(٦٣) **فلسطين**، ص ١٢٧-١٢٨ (١٩٤٨)

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٣١ (١٩٤٦)

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٦٠ (١٩٤٧)

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٩٧ (١٩٤٨)

الثوابت هو عمل عنف ضد الحقائق"، وانه "في التصويت لتقسيم فلسطين فإن الأمم الموافقة على هذا التقسيم تكون قد صوتت "بشكل مخزٍ للدولة الأكثر عرقيّة والأكثر طائفيّة في العالم"[٦٧]. ولكن شيحا يعترف بعد التقسيم بالأمر الواقع وان كان لا يبرّره: ونحن نعتبر وجود اسرائيل أمراً واقعاً"[٦٨]، ولكن "بخصوص المفاوضات معها" للتوصل إلى تسوية ممكنة أو إلى حل سلمي، وهذا صعب، يتمسك شيحا طوال حياته الباقية بثلاثة أمور يعتبرها مفتاح التقدّم نحو حسن الجوار ومواجهة حياة ممكنة عربية / اسرائيلية داعياً كل الدول العربية للتمسك بها وإلا تكون تقترف شكلاً من أشكال الجنون. وهذه الأمور التي ردّدها في معظم كتاباته في الخمسينات حتى وفاته (١٩٥٤) هي: "أن كل تفاوض مع اسرائيل، أين وأنّى كان، لا يمكن أن تكون نقطة البداية فيه سوى في ثلاثة:

١ – الحضور الدولي في القدس، أي تدويل المدينة المقدسة، وهو يعني في نظره "وجوداً دولياً وقانونياً ودائماً ومسلحاً في فلسطين"[٦٩].

٢ – الضمانة الدولية التعاقديّة للحدود العربية – الاسرائيلية "بوجه توسّع اسرائيل"، ويورد على ذمة "الإيكونوميست" "على دول البيان الثلاثي فرض حدود دائمة اذا دعت الضرورة"[٧٠]. مما يمنع اسرائيل من التمادي في قضم الأرض العربية برسم حدود نهائية معترف بها ومحروسة دولياً.

٣ – إيجاد حل عادل وانساني لمشكلة اللاجئين المأساوية.

فهل في كل ما يتم تداوله من مشاريع التسوية والحل اليوم، ما هو خارج هذه المبادئ الأساسية التي حدّدها وشرحها وأكد عليها ميشال شيحا منذ نصف قرن؟

خلاصة:

يحذّر شيحا اليهود قائلاً: "ينبغي أن يعلموا، إن هم مضوا في عنادهم، أنهم سائرون لا محالة نحو حرب المئة عام"[٧١]. نحن الآن في منتصف الطريق! وإذا استمرت العدالة غائبة في

---

(٦٧) **فلسطين**، ص ١٣٠ (١٩٤٨).

(٦٨) المصدر نفسه، ص ١٨٢ (١٩٥٢)

(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٨٢ (١٩٥٢) و٢٤٤ (١٩٥٤)

(٧٠) **فلسطين**، ص ٢٤٨ (١٩٥٣)

(٧١) المصدر نفسه، ص ١١١ (١٩٤٨)

فلسطين واستمر قصور الأمم المتحدة، "فسيظهر شبح الموت فوق حائط المبكى وفوق صهيون عاجلاً أم آجلاً. فليؤخذ كلامنا على محمل الجدّ، فليس فيه إنشاء ولا رومنسيّة"(٧٢). وعلى عكس ما يقوله ويوحي به اليهود ويصدّقه العرب، فإن قضية اسرائيل، في رأي شيحا، ليست قضية حضور (Présence) بل قضية قدرة (Puissance). ففي الحضور اكتفاء وفي القدرة توسّع وهيمنة!

لذا يدعو شيحا إلى اليقظة منذ الأربعينات "وأول الحكومات التي نودّ أن نراها متيقظة هيَ حكومتنا وبالقدر ذاته حكومة دمشق"(٧٣)، على أن تتيقن الحكومتان، ومعهما كل الحكومات العربية، من حقيقة راسخة وهي: "إن اسرائيل لا تريدنا مسلّحين بل تريدنا ضعفاء في كل شيء أي أن ترانا من دون سلاح ومن دون حلفاء، **ومحكومين بأسوأ الساسة**"(٧٤)!!

لقد جمع ميشال شيحا في مقاربته للقضية الفسطينية في كافة أبعادها، العقل والحدس والخيال الخلاّق والحسّ السليم الذي تفرضه الطبيعة والحياة. ان نظرته النبوية السياسية لا تنفصل عن رؤيته للإنسان والعالم. وفي يقينه أن العنف اللاهوتي اليهودي سيواجه بعنف لاهوتي اسلامي، وهو عنف متبادل لا يحل المشكلة بل يعقّدها، "ويجعل الحياة المشتركة في فلسطين مستحيلة وإلى الأبد". وفي يقينه أيضاً "أن الصهيونية ليست مجموعة يهود تعساء يبحثون عن ملجأ لهم في فلسطين وإنما هي قوة عالمية لها مطامع كونية"(٧٥)، وهي تضع في خدمة مطامعها هذه جميع الوسائل: "المال والدسيسة والإغراء وما هو أسوأ: أميركا وروسيا"، بحيث يتحول موقف الدولتين الكبريين من اسرائيل إلى مؤشر على "الافلاس الحضاري للغرب"!

اليوم، وبعد مرور خمسين عاما على وفاة ميشال شيحا، نتبين أكثر فأكثر من خلال كتابه "فلسطين" ومؤلّفاته عن لبنان، كم كان هذا المفكّر عميقاً وملتزماً وواضحاً وذا رؤية تخطّى بها عصره. لقد كان بحق من بناة لبنان — الفكر وآخر أنبياء فلسطين.

د. نبيل خليفة

٢٠٠٤/٧/٨

---

(٧٢) **فلسطين**، ص ١٦٦ (١٩٥١).

(٧٣) المصدر نفسه، ص ١٥١ (١٩٤٩)

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٠٩ (١٩٤٨)